سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

صدق الله العظيم

obeikandl.com

obeikandl.com

السورة مكية مبكرة ، والمشهور فى ترتيبها أنها الثالثة عشرة فى النزول . نزلت بعد الشرحِ وقبل العاديات .

* * *

والمعنى الأصلى للعصر لغةً : الضغطُ لاستخلاص العصارة . استعملتْه العربية حِسيًّا فى عصر العنب ونحوه لاعتصار خلاصته . ومنه المِعصرة آلةُ العصر ، والمَعصرة مكانه . والعواصِرُ ثلاثةُ أحجار كانوا يعصرون بها .

وسُميت السحبُ الممطرة معصراتٍ لما تعتصر من المطر ، وأُعصِر القومُ أمطِروا . كما أطلق الإعصار على الريح الشديدة تسوق السحب .

واستعمل العصرُ مجازيًّا فى الحَبْس بملحظٍ من الضغط . ومنه الفتاة المُعْصِر التى أدركت وبلغت سِنَّ الحَجْز . كما استُعمل مجازيًّا فى استخلاص المالِ على وجهِ العطية أو بالضغط . وقيل لكريم النسب : كريم العصر لما فيه من طيب الخلاصة والعنصر .

ومن هذه الدلالة اللغوية الأصيلة على الضغط والاعتصار ، سُمى الدهرُ عصراً ، بملحظ من استخلاصه عصارة الإنسان بالضغط والتجربة والمعاناة .

كما سُمى وقت الأصيل إلى غروب الشمس عَصْراً ، ملحوظاً فيه مع الدلالة الزمنية أنه تصفية للنهار . وفى المصطلح الدينى الإسلامى ، سُميت صلاةُ العصر لوقوعها فى هذا الوقت من النهار ، كما سُميت سائر الصلوات الخمس بأسماء أوقاتها .

* * *

والذى فى القرآن الكريم من المادة :

ٱلْعَصْر ، بمعناه اللغوى الأول فى اعتصار الخمر بآية يوسف ٣٦ :

« ودخل معه السجنَ فَتَيانِ قال أحدُهما إنى أرانى أعْصِرُ خَمْرا » .

والمعصرات ، للسحب الممطرة فى آية النبأ ١٤ :

« وأنزلنا من المُعصِرات ماءً ثجَّاجًا » .

ومعها آية يوسف ٤٩ :

« ثم يأتى من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناسُ وفيه يَعْصِرون » .

والإعصارُ فى آية البقرة ٢٦٦ .

والعَصْرُ ، فى سورة العصر .

* * *

وقد اختلف أهل التأويل فى العصر :

قيل هو الدهر ، أو الوقت بعينه من النهار . وعليها اقتصر « الإمام الطبرى » فى تفسيره ، ثم اختار الدهر .

وقيل إنه صلاة العصر ، على حذف المضاف ، أو هو عصر النبوة . وقد ساق « الرازى » هذه الأقوال فى العصر دون ترجيح بينها ، إلا أن يُفهَم ضمنيًّا من إيرادها على الترتيب المذكور آنفًا .

ويبدو أن « الزمخشرى » يختار القول بأنها « صلاة العصر لفضلها ، بدليل قوله تعالى : « والصلاة الوسطى » وقول الرسول ﷺ : « من فاتته صلاةُ العصر فكأنما وُتِرَ أهلَه وماله » . ولأن التكليف فى أدائها أشقُّ لتهافتِ الناس فى تجارتهم ومكاسبهم آخرَ النهار ، واشتغالِهم بمعايشِهم » .

نقله أبو حيان فى (البحر المحيط) .

وعبارة الزمخشرى أوجز وأقرب ، من قول الشيخ محمد عبده : « وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ، ويتحادثوا ويتذاكروا فى شئونهم ، وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضُهم بعضًا فيتوهم الناس أن الوقت مذموم ، فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يُذم ويسب ، وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة » .

وهذا ، توسع فى أحد الوجوه التى ساقها الفخر الرازى فى تفسيره الكبير[1] ، والنيسابورى فى غرائب القرآن .

والراجح عند « ابن قيم الجوزية » أنه الدهر ، قال : « وأكثر المفسرين على أنه

---

(١) الجزء الثامن ، سورة العصر . وانظر معه تفسير السورة فى جزء عم ، للشيخ محمد عبده .

الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصراً أمر معروف »[٢].

وهو ما نطمئن إليه – كما اطمأن الإمام الطبرى – مستأنسين بسياق الآية فى السورة ، إذ اللفتُ إلى ما يعتصر الزمنُ من خلاصة الإنسان ، بالضغط والمعاناة ، فيكشف عن خيره أو شره .

* * *

والسورة تبدأ بواو القَسم وهو عندهم على أصل استعماله اللغوى ، لتعظيم المقسَم به . ولم يتعلق « الطبرى » هنا بفكرة العظمة التى سيطرت على جمهرة المفسرين بعده ، فراحوا يتأولون وجه العظمة فى العصر على إختلاف الأقوال فى تفسيره .

جمع الرازى ستة وجوهٍ فى عظمة العصر بمعنى الدهر ، وثلاثة أوجه فى عظمته بمعنى الوقت المعين من النهار ، وستةً فى صلاة العصر ، ثم بيَّن وجهَ عظمتِه إن كان مراداً به عصر النبوة .

وقد نقلتُ آنفًا ، تأويلَ الشيخ محمد عبده للقسَم بوقت العصر . ولا نعلم أن هذا الوقت فى المألوف والعادة وقتُ اجتماع الناس وتذاكرهم وتحدثهم . بل لعل وقت المساء أولى بهذا . ثم إن احتمال التحدث بما لا يليق وما يؤذى ، لا يمكن فى تصورنا أن يختص به وقتُ العصر دون غيره من الأوقات ، وإنما هو مما يحتملُ وقوعُه فى أى وقت من ليل أو نهار !

* * *

ومن حيث آثرنا مع الطبرى وابن القيم ، وأكثر المفسرين ، أن يكون العصر بمعنى الدهر والزمن ، نكتفى هنا بعرض ما قالوه فى عظمة العصر بهذا المعنى .

ولا تكاد أقوالهم تخرج عما استوفاه الفخر الرازى من وجوه عظمة العصر أى الدهر . قال :

« إن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم والغنى والفقر ، بل فيه ما هو أعجب من كل عجيب ، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدَم فإنه مجزأ مقسم بالسنة والشهر واليوم ، ومحكوم عليه بالزيادة

(١) التبيان فى أقسام القرآن : ص ٨٤ ط حجازى ١٣٥٢ هـ.

والنقصان ، وكونه ماضيًا ومستقبلا فكيف يكون معدومًا ؟ ولا يمكنه – يعنى العقل – أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة ، والماضى والمستقبل معدومان ، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود ؟

« إن بقية عمر المرء لا قيمة لها ، فلو ضيعتَ ألف سنة ، ثم تُبت فى اللمحة الأخيرة من العمر بقيتَ فى الجنة أبدَ الآباد ، فعلمتَ حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك فى هذه اللمحة . فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم .

« إن الزمان أعلى وأشرف من المكان ، فكان القسَمُ بالعصرِ قسَمًا بأشرف النصْفَين من مُلك الله وملكوته .

« إنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر ، فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمةٌ حاصلة لا عيب فيها ، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان .

« إنه تعالى ذكر العصر الذى بمضيِّه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن فى مقابلته كسب صار ذلك النقصان عين الخسران . فكأن المعنى : والعصرِ العجيب أمرُه حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح ، مع أنه هدم لعمره وإنه لفى خسر »[1] .

والتفت « ابن القيم » إلى مكان العبرة فيه ، قال : « فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم ، منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام ، وتعاقبهما مع اعتدالها تارة وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء والظلام والحر والبرد ، وانتشار الحيوان وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها ، آيةٌ من آيات الربِّ تعالى وبرهان من براهين قدرته وحكمته . فأقسم بالعصر الذى هو زمانُ أفعال الإنسان ومحلها ، على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم ، على المعاد ، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد »[2] .

وأضاف « النيسابورى » من إشارياته : « أن آخر النهار يشبه تخريب العالم وإماتةَ الأحياء كما أن أول النهار يشبه بعثَ الأموات وعمارةَ العالم . وفيه إشارة إلى أن عمر

---

(١) الفخر الرازى : التفسير الكبير ٨/ سورة العصر.

(٢) ابن قيم الجوزية : التبيان فى أقسام القرآن/٨٤.

الدنيا ما بقى إلا بقدر ما بين العصر إلى المغرب ، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة لا خسران فيها فإن الوقت قد ضاق وقد لا تدرك ما فات » .

كما ذكر « من أعاجيب الدهر الدالة على كمال قدرة خالقها : أن الدهر موجود يشبه المعدوم ومتحرك يضاهى الساكن . . . وأن عمر الإنسان كبعض منه :

* إذا ما مرَّ يومٌ مَرَّ بَعْضِى *

و « لا شىء أنفس من العمر . وفى تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه ، ويحيل شقاءه وخسرانه عليه ، فإقسام الله تعالى به دليل على شرفه ، وأن الشقاء والخسران إنما لزم لعيبٍ فيه – أى الإنسان – لا فى الدهر ، ولذلك قال ﷺ : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »[1] .

* * *

وترى أنهم حمَّلوا لفظ العصر كل هذه التأويلات الفلسفية والإشارية مما لا تتصور أن القرآن الكريم لفتَ إليه بلفظ « والعصر » . وفى البيان القرآنى من آيات الليل والنهار ما يجلو الحكمةَ فيها بما يفهمه الناسُ بأيسر ملاحظة وتأمل ، ونكتفى هنا بآيتى القصص :

« قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم الليلَ سَرْمَدًا إلى يومِ القيامةِ مَنْ إلٰهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بِضياءٍ أفَلا تَسْمَعون * قلْ أرأيتم إنْ جعلَ اللهُ عليكم النهارَ سَرْمدًا إلى يومِ القيامة مَنْ إلٰهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بِلَيلٍ تَسْكُنون فيه أفَلاَ تُبْصِرون » ٧١ ، ٧٢ .

وندع استقراء آيات الليل والنهار ، إلى ما يأتى من تفسيرنا لسورة « الليل » . وأسلوب القرآن فى بيان الآيات وضرب الأمثال للناس ، يجعلنا لا نطمئن إلى أن آية العصر ذُكرت هذا اللفظ ، وأرادت به كلّ هذه التأويلات الفلسفية والإشارية . . .

وأولى من هذا كله أن نقف عند لفظ « العصر » لنرى وجه العدول فيه عن لفظ « الدهر » الذى قال المفسرون فى حكمته وعظمته ما قالوا .

---

(١) النيسابورى : تفسير غرائب القرآن ، على هامش الطبرى : جـ ٣٠ .

والفاصلةُ بكلا اللفظين ، العصر والدهر ، مرعيةٌ ، عند من يتغلقون بهذه الصنعة البديعية ويقفون عند الملحظ الشكلى .

وقد قال الرازى فى وجه إيثار العصر بالذكر : « ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه أن الملحِد مولَع بذكرِه وتعظيمه » .

على حين يذهب النيسابورى إلى أن وجه الإقسام بالعصر هنا « لشرف الدهر » ويروى الحديث : « لا تسبوا الدهرَ فإن اللهَ هو الدهر » .

* * *

ونخلص من هذا كله لنتدبر آية العصر بعيداً عن فلسفة المتكلمين وتأويلات الإشاريين ، فنرى فى استقراء مواضع استعمال القرآن لمادة « عصر » ما يهدى إلى ملحظ إطلاق العربية العصرَ على الدهر ، بما يعتصر من خلاصة الإنسان بالضغط والابتلاء .

وبهذا الملحظ المألوف لدى العرب فى عصر المبعث ، والعربيةُ لغتُهم ، تأتى كلمة العصر فى سياقها من السورة ، لافتةً إلى ابتلاء الإنسان بالعصر الذى يصهره بالمعاناة ويعصره بالتجربة والابتلاء .

والواو هنا فى موضعها الذى تطرد به الظاهرة الأسلوبية فى اللفت إلى حسىٍّ مُدرَك ، توطئةً إيضاحية لبيانٍ معنوىٍّ غير محسوس ولا مدرك ، وهو ما شرحناه بمزيد تفصيل فى تفسير سوَر (الضحى ، والعاديات ، والنازعات) فى الجزء الأول من هذا التفسير ، ونعرض له مرة أخرى فيما يلى من تفسير سورتى (الليل ، والفجر) .

وبهذا اللفت الموجَّه إلى ضغطة العصر ابتلاءً ، تأتى الآية بعده :

« إنَّ الإنْسَان لَفى خُسْرٍ » .

وللمفسرين فى الإنسان قولان : إنه لعموم الجنس ، أو : إن (ال) للعهد مرادًا بالإنسان جماعةٌ من المشركين : الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ، فى رواية عن ابن عباس . وقيل نزلت فى أبى لهب ، وفى خبر مرفوع أنها نزلت فى أبى جهل . . .

« وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً لَفى خُسر ، فأقسم تعالى بالضدِّ

مما يتوهمون »[1] .

ولا نقف عندما اختلفوا فيه ، فالعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى نزلت فيه الآية . والسياق على ظاهره لا يخص الإنسانَ بفلان أو بآخر . والتعميم فيه مستفادٌ صراحةً من الإطلاق ثم استثناء « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وهذا الاستثناء ينقطع إذا ما كان الإنسان خاصًّا بالمعهودين الذين ذكروهم ، وليس فيهم مَن يَخرج بالاستثناء مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

« وإنما استثنى الذين آمنوا من الإنسانِ ، لأن الإنسان بمعنى الجمع لا بمعنى الواحد » كما قال الإمام الطبرى « وللجنسِ بعامة » كما قال الزمخشرى ، أو « اسم جنسٍ يَعُمّ » كما ذهب أبو حيان ، ويوشك أن يكون هذا هو ما اطمأن إليه ابن القيم فى (التبيان) .

* * *

وبقى أن نتدبر موضع الإنسان هنا ، لنلمح سر الدلالة لهذا اللفظ ، لا يقوم مقامه هنا لفظ آخر كالناس أو الإنس ، على القول بترادفها .

فاستقراء هذه الألفاظ فى كل مواضع استعمالها القرآنى . يشهد بأن لكل منها ملحظًا خاصًّا فى الدلالة ، إلى جانبِ الملحظ الدلالى المشترك فيها جميعاً بحكم تقارب مادتها اللغوية فى الأصل :

فالناس لعامة الجنس :

« يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لِتعارفوا إن أكرَمكم عند اللهِ أتقاكم » (الحجرات ١٣)

« فأما الزبَدُ فيَذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرضِ ، كذلك يَضربُ اللهُ الأمثالَ » . (الرعد ١٧)

« وتلك الأمثالُ نضرِبُها للناسِ لعلهم يتفكرون » (الحشر ٢١)

ويأتى لفظ الإنس فى القرآن فى ثمانية عشر موضعاً ، كلها مع الجن ، فشهد ذلك بأن دلالة الإنسية ، بما تعنى من نقيض الوحشية ، هى المتعينة فى الإنس .

(١) تفسير الرازى : جـ ٨ ، والنيسابورى على هامش الطبرى جـ ٣٠ .

أما « الإنسان » فإلى جانب كونه من الناس ، ومن الإنس نقيض الجان (الحجر ٢٦ والرحمن ١٤) يتميز بدلالة خاصة على الإنسانية . وتتضح هذه الدلالة باستقراء آيات الإنسان فى القرآن وعددها خمس وستون آية ، فى سياق الأهلية لاحتمال تبعات التكليف ، والابتلاء بالخير والشر ، والتعرض للغواية ، وما يلابس ذلك من غرور وطغيان .

والإنسان فى القرآن الكريم ، لا الإنس ، هو الذى اختص بالعلم ، وبالبيان والجدل ، كما أنه الذى يتلقى الوصية ويحمل الأمانة .

فشهد ذلك بأن الإنسان ليس مجرد فرد من الإنس أو الناس ، وإنما مناط الإنسانية فيه معنويةٌ ترقى به من مجرد الإنسية البشرية ، إلى حيث يحتمل تبعات التكليف والإدراك والرشد ، وأمانة الإنسان .

وللراغب الأصفهانى ملحظ دقيق فى اشتقاق لفظ الإنسان ، يربطه باجتماعيته التى تجعله يأنس إلى الجماعة[1] . وهو ملحظ يقبله حس العربية فى الإنس والإنسان معاً ، ثم تتخصص الإنسية بدلالتها على نقيض التوحش ، وتأخذ الإنسانية دلالتها على خصائص الإنسان وأهليته لاحتمال تكاليف الإنسانية ، على ما هدى إليه استقراء آيات الإنس والإنسان فى البيان القرآنى[2] .

وبهذه الدلالة الخاصة ، يأتى لفظ « الإنسان » فى سورة العصر ، فى سياق ما يحتمل من تبعات التكليف ومسئولية الإنسان الفردية والاجتماعية .

والخُسر لغةً نقيضُ الربح ، استُعمل ماديًّا فى التجارة الخاسرة أو الصفقة المغبونة ، ومنه جاء بمعنى النقص والجور والضعف والخيانة والغدر ، ثم نُقِلَ إلى المجال الدينى بمعنى الضلال عن الحق وهو أفدح الخسر .

ووردت المادة فى القرآن الكريم فى أربعة وستين موضعاً ، منها ثلاثة فى الخسر بمعناه المادى فى التعامل التجارى مع الوزن والكيل :

---

(١) الراغب : مفردات القرآن – مادة أنس .

(٢) بتفصيل فى (مقال فى الإنسان : دراسة قرآنية) ط المعارف ١٩٦٩ . وفى المبحث الأول من كتابى (القرآن وقضايا الإنسان) ط دار العلم للملايين : بيروت ١٩٧٢ .

« الذين إذا اكتالوا على الناسِ يَستوفُون ، وإذا كالُوهم أو وَزَنُوهم يُخْسِرون » (المطففين ٣)

« وأقيموا الوزنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ » (الرحمن ٩)

« أَوْفُوا الكَيْل ولا تكونوا من المُخسِرين ، وزِنُوا بالقسطاسِ المستقيم ، ولا تَبْخَسوا الناسَ أشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأرضِ مُفْسِدِين » .
(الشعراء ١٨١)

وجات المادة فى الخُسر المعنوى ، فى إخوة يوسف :

« قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبةٌ إنا إذاً لخاسرون » (يوسف ١٤)

وفى ولدى آدم :

« فطوَّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه فقتَله فأصبح من الخاسرين »
(المائدة ٣٠)

والغالب أن يأتى الخسر بالمعنى الدينى ، فى سياق النذير بسوء العقبى وعذاب الآخرة : للكافرين ، والضالين ، والمنافقين ، والمكذبين بآيات الله وبلقائه والمشركين ، والظالمين ، والمبطلين ، والذين يقطعون ما أمر اللهُ به أن يوصَلَ ، ويفسدون فى الأرض ، ومَن يتخذ الشيطانَ وليًّا ، ومَن يبتغى غيرَ الإسلام دينًا ، والذين قَتلوا أولادهم سَفَهًا بغير علم . . .

ويؤذِن السياق فيها بأن الخسر يتعلق بالنفس والمال والأهل والعمل ، فهو خُسر الدنيا والآخرة ، وأكثر ما يكون الخسر يومَ القيامة حيث يدرك الضالون أنهم خسروا الدنيا والآخرة .

« فإذا جاء أمرُ الله قُضِى بالحق وخَسِرَ هنالك المبطلون » (غافر ٧٨)

« وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسِروا أنفسَهُم وأهليهم يومَ القيامة » (الشورى ٤٥)

« قل إن الخاسرين الذين خسِروا أنفسَهُم وأهليهم يومَ القيامة »
(الزمر ١٥)

« ومن يكفرْ بالإيمانِ فقد حَبِطَ عملُه وهو فى الآخرة مِن الخاسرين »
(المائدة ٥)

« أولئك حزبُ الشيطانِ ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون »
(المجادلة ١٩)

وانظر معها آيات : (المؤمنون ١٠٣ ، والتوبة ٦٩)

وجاء « الأخسرون » أربع مرات للذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً وبالآخرة هم كافرون :

« لا جَرَم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » (هود ٢٢)

ومعها : (النمل ٥ ، الكهف ١٠٣ ، الأنبياء ٧٠ ، هود ٤٧)

أما المصدر منه فجاء بصيغة خُسران ثلاث مرات ، موصوفاً فيها بالمبين :

« ومَن يتخذِ الشيطانَ وليًّا من دونِ اللهِ فقد خَسِر خُسرانًا مبينًا »
(النساء ١١٩)

« ومن الناسِ مَن يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ فإنْ أصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابتْه فتنةٌ انقلب على وجهِه خَسِر الدنيا والآخرةَ ، ذلك هو الخسرانُ المبين »
(الحج ١١)

ومعها آية الزمر ١٥ .

وبصيغة الخسار ، ثلاث مرات كذلك ، فى قوم نوح : « واتَّبَعُوا مَنْ لم يَزِدْه مالُه وولده إلا خَسارا » والظالمين : « ولا يَزيد الظالمين إلا خَسارا » الإسراء ٨٢ . والكافرين « ولا يَزيد الكافرين كفرُهم إلا خَسارا » فاطر ٣٩ .

ومرة واحدة بصيغة تخسير فى آية هود :

« فمن ينصرُنى من اللهِ إن عَصَيْتُه ، فما تَزيدوننى غيرَ تخسير » ٦٣ .

وأما صيغة خُسْرٍ فجاءت مرتين : آية العصر ، وآية الطلاق :

« وكأيِّنْ من قريةٍ عَتَتْ عن أمرِ ربِّها ورُسُلِه فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نُكْراً ، فذاقتْ وَبالَ أمرها وكان عاقبةُ أمْرِها خُسْراً » ٩ .

والخسر فيها هلاكٌ ماحق ، عن ضلالٍ وعتو ، والعبرةُ فيها لأولى الألباب .

وهذا الاستقراء يتيح لنا أن نقول إن الخسر يأتى فى القرآن بالمعنى الدينى فى الضياع

وسوء العقبى ، مع ملحظ من معناه الأصلى فى الصفقة الخاسرة لمن يشترون دنياهم بأخراهم فيخسرون الآخرة والأولى .

ما لم يعين السياق غير ذلك ، كما فى آيات المطففين والرحمن والشعراء ، مع الوزن والكيل وبخس الناس أشياءهم .

وهذا الاحتياط هو ما فات « الراغب » حين قال فى (المفردات) : « وكل خسران ذكره الله تعالى فى القرآن فهو على هذا المعنى الأخير ، المتعلق بالإيمان ، دون الخسرانِ المتعلق بالقنياتِ الدنيوية والتجارات » .

* * *

ونفهم الخسر فى آية العصر ، بما يؤنس إليه سياق النكوص عن تبعات التكليف والتفريط فى مسئولية الإنسان .

فلا نستريح إلى تأويل الزمخشرى بأن المعنى « أن الناس فى خسران من تجارتهم ، إلا الصالحين وحدهم لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا ، ومَن عداهم تحرَّوا خلاف تجارتهم فوقعوا فى الخسارة ، والشقاوة »[1] .

كما لا نتعلق بما ساقه « الفخر الرازى » من احتمال « أن الإنسان لا ينفك عن خسر ، لأن الخسر تضييع رأس المال ، ورأسُ ماله عمره : إن أنفقه فى المعصية فلا شك فى الخسران ، وإن أنفقه فى المُبَاحَات فالخسرانُ أيضًا حاصلٌ لأنه كان متمكنًا أن يعملَ فيه عملاً يبقى أثره دائماً ، وإن أنفقه فى الطاعات فلا طاعةَ إلا يمكن الإتيانُ بها على وجهٍ أحسنَ لأن مراتبَ الخشوع غيرُ متناهية ، كما أن مراتب جلالِ الله وقهره غير متناهية »[2] .

وصريح النص فى الآية بعد الخسر ، يؤذن بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وبالصبر ، ليسوا فى خسر أبداً .

وحرف « فى » يأخذ موضعه فى هذا البيان المعجز ، بما يفيد من معنى الظرفية ، فى الغمر والإحاطة والإغراق .

---

(١) الكشاف : ٤/العصر.

(٢) التفسير الكبير : جـ ٨ ، العصر.

وليس تنكير «خسر» من المبالغات كما ذهب النيسابورى ،
وإنما التنكير ، فيما يُفهم من السياق ، على أصله البيانى من الإطلاق غير المحدود بقيد أو عهد . وقد يحتمل كذلك معنى التهويل ، على ما قال الرازى . ووجهه عنده ، أنه « خسر عظيم لا يدرك كُنْهَه إلا الله » .

* * *

« إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

الإيمانُ نقيض الكفر ، وفى دلالته اللغوية الأصيلة حِسُّ الأمن والأمانة .
والصلاح ضد الفساد ، وتستعمل الصالحات فى المجال الدينى ، نقيضاً للسيئات .
وواضح هنا أن على الإنسان مسئوليته فرداً بالإيمان وعمل الصالحات ، ومسئوليته عن الجماعة بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

ويقترن العمل الصالح بالإيمان فى القرآن الكريم نحو خمس وسبعين مرة ، مع الوعد والبشرى بأن مَن يعمل صالحًا وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلماً ولا هَضْما ، لا كفران لسعيه ، له جزاء الحسنى ، وحياة طيبة .

والذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ، وقليل ما هم ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لهم الدرجاتُ العُلى ، ولهم أجرُهم عند ربهم ، أجر كريم ، عظيم كبير ، غير ممنون . ولهم مغفرة ورزق كريم ، ولَيَستخلِفَنَّهم الله فى الأرض ، ويزيدهم من فضله ، وسيجعل لهم الرحمن وُدًّا ، وهم خيرُ البرية ، وأصحابُ الجنة ، طوبى لهم وحسن مآب .

ويأتى العمل الصالح مسنداً إلى رسل الله ، كما يأتى الصالحون مع النبيين والشهداء فى آيات (النساء ٦٩ ، الأنبياء ٧٢ ، ٨٦) وفى دعاء يوسف (١٠١) وإبراهيم (الشعراء ٨٣) وسليمان (النمل ١٩) .

وعُطِف النهىُ عن الشرك على العمل الصالح فى آية الكهف ١١٠ :

« فمن كان يرجو لقاء ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً » .

كما جاء مقابلا للكفر فى آية الروم ٤٤ :

« مَنْ كَفَرَ فعليه كفرُه ، ومن عَمِلَ صالحاً فَلأنفسِهم يَمْهَدون »

وفى هذا الاستقراء إيذانٌ صريح بأن عمل الصالحات قرينُ الإيمان ، ومنه نقول فى آية العصر إن الإيمان بالله ينبغى أن يقترن بعملِ الصالحات ، لكى ينجو الإنسان من الخسر .

لكن من المفسرين من لم يأخذوها بمثل هذه البساطة واليسر ، بل أثاروا فيها عدداً من المسائل ، منها جدَلٌ للمتكلمين لا يعنينا هنا فى تفسيرنا البيانى ، كالذى ثار بين المعتزلة والأشعرية من خلاف حول تسمية الأعمال بالصالحات : هل لكونها فى نفسها مشتملة على وجوه الصلاح ؟ أو لأن الله سبحانه أمر بها ؟

ومنها ما يتصل بموضوعنا فى أسرار التعبير ، كالوقوف عند عطف عمل الصالحات على الإيمان ، احتج به من قال بأن العمل غيرُ داخل فى مُسمى الإيمان بالله : « إذ لو كان داخلاً فيه لكان تكريراً ولا يمكن أن يقال إن هذا التكرير واقع فى القرآن ، ولا يحتج له بمثل قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح . . . » وقوله سبحانه : « وملائكته ورسله وجبريل وميكال » لأن هذا حسُن فيه إعادةُ ما هو أشرفُ أنواعِ الكُلِّى ، وعملُ الصالحات ليس أشرفَ أنواع الإيمان ، فبطل هذا التأويل »[1] .

ورُدَّ عليهم بما فى سورة العصر نفسها من عطف التواصى بالحقِّ وبالصبرِ على عمل الصالحات ، فكان جوابهم : « لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد . لكن الأصلَ عدمُه »[2] .

ونتدبر القرآن الكريم فيهدينا استقراء آياته المحكمات – على ما قدمنا – إلى أنه كثيراً ما يعطف العملَ الصالح على الإيمان ، فلا يكون هذا تكريراً للتأكيد ، بقدر ما هو هو إيذانٌ بأن الإيمان يقترن بالعمل الصالح .

فعمل الصالحات فى آية العصر ، إذا عدَّه بعضهم داخلا فى الإيمان – وآية الروم تؤنس إليه – فليس العطفُ تكريراً لمجرد التأكيد ، وهو مألوف فى العربية ، وإنما يكون

(١ ، ٢) الفخر الرازى : التفسير الكبير جـ ٨ .

فيه تنبيهٌ إلى قيمة عملِ الصالحات وموضعها من الإيمان ، فكأنه من التخصيص بعد التعميم .

وليس لقائلٍ أن يقول فى البيان المعجز : « لا نمنع التكرير للتأكيد ولكن الأصل عدمه » . . . إذ أن هذا القرآن هو الأصل والحجة !

* * *

وبالإيمان وعمل الصالحات تتعين مسئوليةُ الإنسان فرداً ، مع مسئوليته عن الجماعة :

« وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

الحق هنا نقيض الباطل .

والعربية قد استعملته حسيًّا فى الطعنة لا زيغ فيها . والمحقق من الثياب المحكم النسيج ، والحِقُّ من الإبل الذى اشتد واستحق أن يُركَب .

ويلحظ من صدقِ النفاذ ، أُطلِقَ على العدل والحزم والصدقِ والأمرِ المقضىِّ والموت .

والحق ، واحد الحقوق . وتحقق الخبرُ صحَّ وصدق . ومن ثم شاع استعماله فى نقيض الباطل . ونُقل بهذا الملحظ إلى المحال الدينى اسمًا من أسماء الله الحسنى ، وكثر استعماله بمعنى الوحى ورسالات الدين .

وفى القرآن الكريم وردت المادة بصيغة الفعل الثلاثى تسع عشرة مرة ، فيما حَقَّ من قولِ الله وعذابِهِ ووعيده على الكافرين ، ومرتين على البناء للمجهول فى آيتى الانشقاق :

« وأَذِنَتْ لربها وحُقَّتْ » .

وجاء المضارع من الرباعى أربع مرات ، كلها مسندة إلى الله تعالى :

« لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبطل الباطلَ ولو كره المجرمون »

(الأنفال ٨ ، ومعها : الأنفال ٧ ، ويونس ٢٤ ، والشورى ٢٤)

وجاء فعل الاستحقاق مرتين فى آية الدَّيْن (المائدة ١٠٧) ولا يخلو سياقها من ملحظ الحرمة الدينية فى أداء الشهادة .

أما صيغة الحق فجاءت نحو مائتين وسبع وعشرين مرة ، كلها فى المعنى الدينى ، إما مقابلة للباطل ، أو اسمًا من أسماء الله الحسنى ، أو للوحى والدين . ويوصَف بالحق وعدُ الله ، وقوله ، وكلماتُه .

ولا يخرج عن هذا السياق الدينى ، ما فرض الله على ذوى المال من حق معلوم لمن يستحقونه ، وما شرع من حقوق فى الميراث والزواج والطلاق ، بما لهذه الحقوق من حُرمة دينية تجعلها من حدود الله .

وسمى يوم القيامة : « الحاقَّة » .

وذلك كله مما يضفى على كلمة « الحق » مهابة وجلالاً ، ويؤكد حرمتها فى التواصى بالحق .

والتواصى : أن يوصى بعضهم بعضاً .

والأصل اللغوى للمادة يعطى معنى قوة الارتباط والاتصال : فالوَصَاة والوصية جريدة النخل يُحزَم بها . ووصت الأرض اتصلَ نباتُها . ومنه جاءت الوصية فيما يعهد به الموصِى ليصلَ إلى من ينبغى أن يتلقاه : أوصاه ووصَّاه ، عهد إليه . وتواصى القومُ بأمرٍ أوصى به أولهم آخرَهم . والوصيةُ ما يتركه الآباء للأبناء وذوى القربى . .

وفى القرآن الكريم جاء الفعل وصَّى وأوصى ، اثنتى عشرة مرة ، فيما أوصى به سبحانه رسلَه وعباده . وغلب مجىء الوصية بمعناها المعروف فيما يوصِى به الراحلون عن الدنيا ، مع حُرمة دينية يسبغها القرآن على الوصيةِ بالحق فى حدود ما أمر به الله .

أما التواصى فجاء فى القرآن خمس مرات ، كلها بصيغة الفعل الماضى . وإحداها فى سياق الاستفهام الإنكارى لموقف أمم خلتْ من رسل الله إليهم ، وكأنهم تواصَوْا بالتكذيب :

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون »
أتَواصَوا به بل هم قوم طاغون » (الذاريات ٥٣)

والأربع الباقيات فى مسئولية الإنسان عن الجماعة ، بآية العصر :

« وتواصَوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وآية البلد :

« فلا اقتحم العقبةَ ، وما أدراك ما العقبةُ ، فكُّ رقبة ، أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسْغَبة ، يتيما ذا مَقربة ، أو مِسكينًا ذا مَتْربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصَوا بالصبر وتواصَلوا بالمرحمة » .

والسورتان مكيتان ، ففيهما تقريرٌ لما هو من أصولِ الدعوة الإسلامية .

• • •

والصبر فى العربية نقيض الجزع .

ومن استعماله اللغوى فى الحِسِّيات : عُصارة شجرٍ مُرٍّ ، واللبنُ إذا اشتدت حموضته إلى المرارة ، والحجارة الغليظة المجتمعة .

ويلحظ من الشدة والمرارة ، قيل للحربِ الشديدة وللداهية : أمُّ صبور . والصبارة شدة البرد .

والصبرُ الحَبْس ، والقتلُ صبراً أن يُحبَسَ المرءُ ويرمَى حتى يموت .

ثم كثر استعماله فى الصبر على الشدائد والمكاره . والصبور الحليم الذى لا يعاجِل العُصاةَ بالنقمة ، بل يضبط أمره فيعفو أو يمهل .

ولم يذكر القرآن الكريم فى آيتى العصر والبلد متعلق الصبر الذى يتواصى به المؤمنون ، وقد فسره الإمام الطبرى بالصبر على العمل بطاعة الله . وقال الزمخشرى فى الكشاف : هو الصبر عن المعاصى وعلى الطاعات وعلى ما يبلو به الله عباده . وقريب منه ما جاء فى البحر المحيط لأبى حيان . وفصله الفخر الرازى فقال فيما قال :

« إن التواصى بالصبر يدخل فيه حملُ النفس على مشقة التكليف فى القيام بما يجب وفى اجتناب ما يحرم . إذ الإقدام على المكروه والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد . . . ودلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحنَ تلازمه ، فلذلك قُرِن به التواصى بالصبر » .

وكلها أقوال متقاربة مقبولة ، ولا يكاد يخرج عنها ما فى تفسير الشيخ محمد عبده لسورة العصر .

• • •

ونستقرئ آيات الصبر فى القرآن ، فنجد الأمر الإلهى للمصطفى بالصبر ، فى نحو

عشرين موضعاً . ويتعلق الصبرُ فيها بما يحتمل ﷺ ، من أعباء تبليغ رسالته ، وما يلقى من تكذيبٍ وأذى بالقول أو بالفعل .

وأمر اللهُ المؤمنين بأن يستعينوا باللهِ ، وبالصبرِ والصلاة ، فى آيات : (البقرة ٤٥ ، ١٥٣ ، والأعراف ١٢٨) كما أمرهم بالصبرِ فى الجهاد والثبات عند لقاء العدو :

« يٰأيها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتقُوا اللهَ لعلكم تفلحون »
(آل عمران ٢٠٠)

« يٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئةً فاثبُتوا واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولا تَنازعوا فتفشلوا وتذهبَ رِيحُكم واصبِروا إن الله مع الصابرين » (الأنفال ٤٦)

ووُصِف أنبياء بالصبر فى آيتى (الأنبياء ٨٥ ، ص ٤٤) ، وجاء الصبر مسنداً إلى أولى العزم من الرسل (الأحقاف ٣٥) ورسلٍ من قبلك (الأنعام ٣٤) وأئمةٍ يهدون بأمر الله (السجدة ٢٤) والمؤمنين والفائزين بنعيم الآخرة :

« سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار » (الرعد ٢٤)

« وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم »
(فصلت ٣٥)

وآياتُ الصبر فى القرآن الكريم لا تتجه إلى غير هذه الصفوة من الرسل والمؤمنين ، إلا أن تجىء نذيراً للخاسرين كالذى فى آيات :

« وبرزوا للهِ جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعًا فهل أنتم مُغْنُون عنا من عذابِ اللهِ من شىءٍ ، قالوا لو هدانا اللهُ لهديناكم سواءٌ علينا أجزعنا أم صَبَرْنا ما لنا من محيص » (إبراهيم ٢١)

« هذه النارُ التى كنتم بها تُكذبون * أفَسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تُبصِرون * اصْلَوْها فاصبِروا أوْ لا تصبروا سواءٌ عليكم إنما تُجزَون ما كنتم تعملون »
(الطور ١٦)

« أولئك الذين اشتَرَوُا الضلالةَ بالهدى والعذابَ بالمغفرة فما أصْبَرَهم على النارِ » ! (البقرة ١٧٥)

وقريب منها صبر المشركين على آلهتهم ، وعلى ضلالهم وكفرهم ، فى مثل آيات :
(فصلت ٢٤ ، الفرقان ٤٢ ، ص ٦) .

ومما يتعلق به صبر المؤمنين :

الابتلاء : « ولنَبلُوَنَّكم بشىء من الخَوْفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ وبشِّرِ الصابرين » (البقرة ١٥٥)

والمصائب : « الذين إذا ذُكِر اللهُ وَجِلت قلوبُهم والصابرين على ما أصابهم » (الحج ٣٥)

و « فى البأساء والضراء وحين البأس » (البقرة ١٧٧)

وفى الجهاد ولقاء العدو ، وهو من أكثر مما يتعلق به صبر المؤمنين :

« ثم إن ربّك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا »

« إن فى ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّار شكور »

« والله يحب الصابرين » وهو سبحانه : « مع الصابرين » .

* * *

والسكوتُ عن ذكر متعلق الصبر الذى يتواصى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فى آية العصر – وآية البلد – يعطيه دلالة الإطلاق والتعميم فى حدود ما ورد فى القرآن الكريم مما يصبر عليه المؤمنون من تكاليف الإيمان ، والابتلاء ، وفى السراء والضراء وحين البأس ، وفى الجهاد ولقاء العدو .

وتلك هى مسئولية الإنسان الاجتماعية ، تُلزمه دينًا أداء حقِّ الجماعة من التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

* * *

وموقف القرآن من هذه التبعة ، يقطع برفض السلبية التى يتصور فيها الإنسان أنه يكفى لنجاته من الخسر ، أن يؤمن بخالقه ويعمل صالحاً ، دون أن يقضى حق الجماعة .

وبعيداً عن جدل علماء الكلام ، نقول إن الإيمان وعمل الصالحات يجدى على الجماعة بصلاح أفرادها ، وتَحرُّجهم من اقتراف ما يسىء إلى إخوانهم وأمتهم . لكن الإنسان مظنة أن يتوهم أن الإيمان يكفى فيه النطق بالشهادتين وأداء العبادات واجتناب

الكبائر ، ومن هنا كانت عناية القرآن الكريم بتقرير المسئولية الاجتماعية ، أصلاً من أصول الدين .

فبمثل هذا التقرير الحاسم فى سورتى العصر والبلد ، تتقرر مسئولية الإنسان الاجتماعية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فى آيات أخرى محكمات :

« ولْتَكُنْ منكم أُمةٌ يَدعُون إلى الخيرِ ويأمُرون بالمعروفِ وينَهون عن المنكر » (آل عمران ١٠٤)

« كنتم خيرَ أُمةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تأمرُون بالمعرُوف وتَنهَون عن المُنكرِ وتؤمنون باللهِ » . . . (آل عمران ١١٠)

« يؤمنون باللهِ واليومِ الآخر ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكرِ ويسارعون فى الخيراتِ وأولئك من الصالحين » (آل عمران ١١٤)

« . . . الآمرون بالمعروفِ والناهون عن المنكرِ والحافظون لحدودِ اللهِ وبَشِّرِ المؤمنين » (التوبة ١١٢)

ومعها آيات (الأعراف ١٥٧ . والتوبة ٧١ ، والحج ٤١ ، ولقمان ١٧) .

وكما جعل القرآن الكريم مناط خيرية أمتنا ، الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر ، لعن الذين تخلوا عن هذه التبعة الكبرى من كفار بنى إسرائيل :

« لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى بنِ مريمَ ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهَون عن منكر فعلوه لَبِئْسَ ما كانوا يفعلون » (المائدة ٧٩)

كما لعن الله المنافقين والمنافقات :

« يأمرون بالمنكرِ وينهَوْنَ عن المعروفِ ويَقْبِضون أيديَهم ، نسُوا اللهَ فَنسِيَهم ، إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة ٦٧)

وهيهات لشريعة وضعية أن ترقى بالإنسان إلى مثل هذا المستوى من احتمال مسئوليته الاجتماعية التى يجعلها الإسلام مناطَ الخير والإيمان ، وعاصِما من الخسر والهلاك :

« والعصر ، إن الإنسانَ لَفى خُسْر ، إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وتواصَوا بالحقِّ وتواصَوا بالصبر » .

صدق الله العظيم